الانتماء وحالة المواطنة في مصر(*)

د.مصطفى الفقي(**)

يجب ابتداءً أن يتم التعامل مع موضوع الانتماء بطريقة برجماتية لا نظرية، فالمصريون أكثر شعوب العالم تغنيًا بوطنهم وأقلهم عملًا لهذا الوطن. لقد كان الانتماء لمصر أقل تعقيدا في الفترة السابقة على حدوث ثورة يوليو 1952، أما في مرحلة ما بعد ثورة يوليو فقد بدأ الأمر يختلط بدوائر مختلفة، فاتضحت بعض ملامح عروبة مصر السياسية بعد أن كانت الدائرة العربية للهوية تقتصر على البعد الثقافي، ويعود الفضل في ذلك للرئيس جمال عبد الناصر. أما في العقود الأخيرة فقد تقدم الانتماء الديني على الانتماءين القومي والوطني ويمكن أن يرد ذلك إلى أن "نكسة 1967"كانت فادحة وأدت إلى حالة من النكوص الشديد، حيث تضاعفت معدلات الهجرة بعدها، وسادت حالة من القنوط، وسادت فكرة فشل المشروع الأيديولوجي الاشتراكي وفشل المشروع القومي، مما مهد للمضي نحو الهوية الإسلامية.

تنبه الرئيس جمال عبد الناصر إلى ما ذكر آنفا، ونصحه مستشاره بأن يكون ظهوره بعد النكسة في مناسبة دينية، فكان ذلك في مولد السيدة زينب. لقد كان النظام الناصري متهما بالإفراط في العلمانية قبل هزيمة 1967، وكان لهذا عدة شواهد منها مساندة الهند الوثنية ضد باكستان المسلمة في النزاع حول إقليم كشمير، ودعم ماكاريوس اليوناني في قبرص ضد الأتراك، ومناهضة الأحلاف الإسلامية، فضلا عن شواهد كثيرة أخرى تؤكد محاولة عبد الناصر الخروج من دائرة التأثير الديني. وبناء على ذلك فهو يشبه إلى حد كبير محمد علي في التوجه اللاديني للحكم. ولكن لم يستمر الأمر على هذا النحو فبعد هزيمة 67 تغير الأمر وشجعت الدولة حديث الأقباط عن ظهور العذراء في الزيتون، حتى توجه الناس نحو الانتماء الديني.

حينما تولى الرئيس السادات السلطة أكمل إغلاق الدائرة منتصرا للانتماء الديني، لأنه أراد التخلص من خصومه من الناصريين واليساريين من خلال شرعية جديدة، وتصور أن قاعدة حكمه ستكون من الإسلاميين، فشجع جماعة الإخوان المسلمين، وساءت علاقته مع البابا، وعزز وجود الإسلاميين معتقدا أن استدعاءهم إلى المجال السياسي سيؤدي تلقائيًا إلى تعزيز الانتماء الديني لدى المصريين، ويكون إشارة واضحة إلى الغرب والاتحاد السوفيتي آنذاك مضمونها أن لديه توجهات تبدو بعيدة تمامًا عما كان عليه الرئيس عبدالناصر، ويمكن القول بأن الرئيس السادات كان رجل دولة لم يشهد تاريخ مصر الحديث حاكمًا مثله من حيث الرؤية الشاملة واستشراف المستقبل وفهم التغيرات الإقليمية والدولية باستثناء محمد علي. وبهذا عزز السادات من وجود التيار الديني، وقد كان أكثر ضباط الثورة ثقافة، فكان قارئا للأدب محبا للفن وعمل بالصحافة. تاريخه قبل الثورة ثري بالنشاط، فشارك في اغتيال أمين عثمان، وكان جزءًا من محاولة عزيز المصري في الإنزال خلف خط الحلفاء لمقابلة روميل. فهو مغامر من طراز فريد لم يرتد زيه العسكري منذ تخرجه حتى قيام الثورة سوى عام ونصف العام. إن رجلا بهذه الرحابة وسعة التجارب كان له إدراك خاص حول حكم مصر وشخصية "فرعونها". ولم يجد مانعًا أن تكون العباءة الدينية إحدى المظاهر التي تجعل منه كبير العائلة بالفعل، ولقد عززت هذه الرؤية في إدارة الدولة وجود الانتماء الديني وتأصيله لدى الأجيال الجديدة وحصاده نشعر به الآن.

إن الفكرة القومية شامية الأصول، لذلك لاقت توجهات عبد الناصر العروبية لديهم القبول، وظهر التوجه القومي العربي في كتابات العروبيين في المهجر الذين كان قوامهم من مسيحي الشام، ويجب الأخذ في الاعتبار أن الذي حافظ

(*) عقدت هذه المحاضرة في 12 مايو 2010، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية.

(**) سياسي مصري.

على اللغة العربية هي أديرة الموارنة والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك. أما الوضع في مصر فهو مختلف، لأن القضية الوطنية في مصر ذات طابع إسلامي، فقد كنا نحارب عدوًا هو بريطانيا وسبقتها فرنسا وكلتاهما يدين بدين غير إسلامي، فالمعادلة كانت بين الإسلام والغرب الوافد. أما في الشام فكان العدو هو الحكم التركي العثماني، فكان الاشتراك في الدين والخلاف في القومية، فجرى التركيز علي القومية لتكون محور الانتماء الذي يواجه به الآخر، لذلك فإن مفهوم الانتماء العروبي في الشام هو الأصل، أما في مصر كان الانتماء دينيًّا إلى حد كبير، ولم ينفصل الانتماء الديني عن الحركة الوطنية المصرية إلا في ثورة 1919، عدا ذلك فكل الحركة الوطنية في مصر دينية الانتماء.

نخلص إذن إلى أن الهُوية المصرية كانت إسلامية، ثم تحولت إلى مصرية (وطنية)، ثم أصبحت عربية، ثم عادت من جديد وبقوة لتلوذ بالمفهوم الديني للشخصية المصرية.

إن الدين في مصر متجذر جدًا، بل إن مصر أكثر دول العالم تدينًا. الدين مدخل للاستحواذ على قلوب المصريين على مر عصور كثيرة، والشاهد على ذلك إعلان الإسكندر نفسه ابنا للإله آمون، ومنشور بونابرت الشهير للمصريين.

ما سبق يفسر قوة جماعة الإخوان المسلمين في مصر، لأنها ترفع شعارا يصادف هوى في قلب أي مسلم، فهم قد استفادوا من الأرضية المتدينة ومن القاعدة المرتبطة بالجانب الروحي للإسلام بتحويلها إلى طاقة سياسية، وهنا تكمن الخطورة؛ أي التلاعب بالجانب الديني من خلال دغدغة مشاعر المصريين وعواطفهم وتوجيهها في الطريق الذي تريده، فإذا كان الانتماء في مصر له دوائر عديدة، إلا أننا نشهد الآن طغيان الدائرة الدينية، وهو ما يؤدي إلى أن الناس الآن لا تحكم على الأمور من منطق قانوني أم غير قانوني بل من منطق حلال أم حرام حتى في القضايا الحياتية العادية، فأصبحنا الآن أمام المرجعية الدينية ولسنا أمام المرجعية الوضعية الطبيعية للقانون المعمول به، وهو قانون مستقى من الغرب بالأساس. فالدين هو المدخل إلى المصريين وليس العروبة أو القومية، فالعروبة طارئة على الشخصية المصرية.

على جانب آخر، بدأ في مصر في العشرينيات والثلاثينيات تيار من المفكرين التغريبيين الذين يرون أن الهُوية الحقيقية لمصر أنها جزء من بحيرة الحضارات، وكتاب طه حسين (مستقبل الثقافة في مصر) شاهد على ذلك، الذي اعتبر فيه أن مستقبل الثقافة في مصر مرتبط بالثقافة اليونانية.

لا شك أن فكرة الانتماء عند المصريين غير ثابتة، فالمصريون ينتمون لأرضهم وتاريخهم، فمصر بلد ذو تعددية خاصة، لذلك تخضع هويته لهذه السبيكة المتداخلة من الرؤى والأحاسيس، لكن الآن الرؤية الأساسية هي الرؤية الدينية، والبعد الديني متقدم على غيره من أبعاد الهوية، وتأتي بعد الرؤية الدينية الفكرة المصرية الفرعونية التي يتبناها بالأساس الأقباط، وبعد ذلك تأتي الفكرة القومية.

نخلص من ذلك إلى أن قضية الانتماء في مصر قضية معقدة ومركبة، تتداخل فيها عوامل عدة: إنسانية وروحية ومادية ذلك أن الانتماء يقتضي إشباعا لحاجات الأفراد المنتمين، فإن كنت لا أعطيك وأهملك كيف ستنتمي إليّ.

نحن نتطلع إلى يوم تكون فيه مصر أفضل حالًا مما هي عليه الآن، فمصر تستحق الكثير.

المداخلات والتعقيبات

– نوال:

يفتخر المصريون بأصلهم الفرعوني والجزائريون بأصلهم الأمازيغي هربًا من الانتساب للعرب مع أن الله أنزل آخر الرسالات باللغة العربية فكيف ترون ذلك؟ وهل يمكن استغلال هذه الانتماءات المذكورة للتفريق بين الشعب الواحد؟

د.مصطفى

نزول الرسالة بالعربية ليس مكرمة، فلعلها نزلت لأقل الشعوب تحضرًا وأكثرهم تخلفًا، وفي الجزائر خاصة الإسلام قومية وليس دينًا، ولقد استخدم الجزائريون الإسلام في نضالهم ضد الفرنسيين كقومية، لأن ثقافتهم هي للفرنسية أقرب وكذلك الفكر واللغة، ولذلك كل جزائري مسلم.

من ناحية أخرى لا يوجد ما يعرف بالجذور العربية للمصريين، فعمرو بن العاص حينما فتح مصر كان معه أربعة آلاف جندي في الوقت الذي كان فيه تعداد المصريين يقارب الثمانية ملايين، وظلت مصر قبطية الديانة وغير عربية اللسان قرنين من الزمن بعد الفتح، ولم يدخل المصريون بكثرة في الإسلام إلا في العهد الفاطمي بسبب "ضغوط الجزية"، وجيلاً بعد جيل وقر الإيمان في قلوبهم، وأصبحت مصر دولة إسلامية، وقبلت الكنيسة القبطية أن تتلى الصلوات باللغة العربية، وهنا كانت بداية تعريب مصر.

– إذا كانت مصر أكثر دول الأرض تدينًا كما ذُكر فما المقصود بالتدين؟ وهل ينصرف إلى الشكل والمضمون؟ وهل يمكن مقارنة التدين في مصر بالتدين في المملكة العربية السعودية؟

د.مصطفى

المصري تدينه فطري وبسيط يتسم بالوضوح، فالفلاح يُصلي على ضفاف النهر بلا تكلف. وبينما كان مذهب القرية المصرية المالكية والشافعية كانت الدولة مذهبها حنفي وفقًا للدولة العثمانية. والمصري يعظم المحرمات وينفر منها في حين يستهان بالمحرمات في دول أخرى على الرغم من تدينهم الشكلي.

– عيد عبد الهادي:

إن كان الحديث عن الانتماء فهذا يسحبنا لأزمة المواطنة المصرية، وأن المواطنة ليست بالضرورة انتماء، وإنما الانتماء هو المواطنة في أعلى درجاتها، وانعكاس أزمة المواطنة جلي وواضح في عدم المشاركة من الشباب سواء على الصعيد السياسي أم الاجتماعي ولا نبرئ الدولة من مسئوليتها عن هذه المظاهر السلبية، فكيف تُفعل الدولة دورها؟

د.مصطفى:

فيما يخص العلاقة بين المواطنة والانتماء، كل انتماء لابد له من مظلة مواطنة، وليست كل مواطنة بالضرورة تحمل معنى الانتماء، فالمواطنة هي المساواة بين المختلفين رجل وامرأة، مسلم ومسيحي، غني وفقير، فالجميع أمام القانون متساوون في الحقوق السياسية، فلا يضيع عليك حق بسبب الاختلاف.

وفيما يخص التربية السياسية أتفق معك أنها قاصرة في مصر، فمشاركة الشباب في العمل الوطني داخل الجامعة عكس ما كان متاحًا في العهد الناصري، حيث كانت منظمة الشباب تقوم بتربية الشباب سياسيًا، والأحزاب الآن لا تقوم حتى بهذا الدور مع أن الأصل في الحزب أنه مدرسة لتخريج الكوادر.

- أحمد محروس (محامي):

ذُكر أن الطريق لقلوب المصريين هو ديانتهم، وما نراه الآن أن إيران تسعى لإلباس كل قضايا المنطقة ثوبًا إسلاميًّا، فأصبح معسكر الممانعة يملك قلوب المصريين، في المقابل نجد دول الاعتدال السنية ليس لها مشروع سياسي، وحتى الآن لم يحل بديل في المنطقة يضاهي المشروع الناصري. فهل يمكن رسم ملامح لمشروع سياسي لدول الاعتدال يعبر عن مصالحها بلا انحياز لطرف على حساب آخر؟

د.مصطفى:

إيران تسعى لإلباس كل شيء رداءً فارسيًّا وليس إسلاميًّا. هم يعتقدون أنه آن الأوان لأن يسود الفرس العالم الإسلامي بعدما ساده العرب والأكراد والترك، واتضح ذلك في خطاب الخميني عند عودته بعد الثورة، فالأجندة فارسية وليست إسلامية.

من مصلحة دول الاعتدال الاشتباك مع إيران فكريا وسياسيا وحضاريا. لماذا تُترك لها الساحة لتكون المتحدث الوحيد باسم المنطقة؟! فهناك تفريط عربي بيّن.

- م/ عبد المعطي حجازي:

ألا يدرك أهل الفكر والسياسة حقيقة الانحدار الموجود في دورنا الإقليمي والذي سجلته مراكز علمية؟ وما السبب في تجاهل هذا على الرغم من وضوحه؟

د.مصطفى:

تراجع دور مصر الإقليمي مبعثه قرار إرادي، وبناءً عليه يمكن لمصر استعادته إن أرادت بخطوات بسيطة، وهي مثلًا: إعادة العلاقات مع إيران، والدخول كمراقب في أوضاع السودان، والتدخل في الوضع في لبنان، وفتح حوار مع سوريا، ومطالبة دول الخليج بالتعامل الندي. هذه خطوات عملية لكن لا توجد إرادة سياسية، لأن فلسفة الحكم تنكفئ على المشكلات الداخلية.

لا أوافق على الرؤية التي تذهب إلى انهيار دور مصر الإقليمي، لأن دور مصر شمس لا تغيب وقيمة مصر في دورها الذي تؤديه في المنطقة. ومع هذا لا ينبغي إهمال بعض مظاهر قوة مصر وتأثيرها في المنطقة، فالرئيس الأمريكي أوباما ألقى خطابه للعالم الإسلامي من القاهرة، وأول زيارة للرئيس الأمريكي بوش في المنطقة كانت لمصر، فالمفتاح لا يزال في يد مصر؛ أمين عام الأمم المتحدة من أفريقيا كان مصريا ورئيس البرلمان الدولي مصري، مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية مصري ولأول مرة من دولة غير غربية، وحصلنا على جائزة نوبل أربع مرات في عشرين عامًا دون دول المنطقة كافة.

لقد فهم أهمية هذا الدور وزير خارجية تركيا الذي قال إن محور: إيران، تركيا، العراق، سوريا بدون مصر عديم الجدوى، وبدون مصر لن تقوم لنا قائمة.

- محمد السعيد الحسيني:

ما رأيكم في الموقف المصري تجاه الملف المائي؟

أرى أننا تأخرنا، وهذه الدول في حاجة إلى مشروعات تنموية، فالقضية ليست مقتصرة على مياه النيل فحسب، فإقامة مشوعات وبرامج تنموية مشتركة مع هذه الدول يساعد في حل أزمة نهر النيل. فقد ظل التعامل مع قضية مياه النيل لسنوات طويلة بأساليب فنية فقط، بينما تحتاج القضية إلى تعامل سياسي.

- مريم علي عبد الوهاب:

إذا كانت حركة المواطن داخل وطنه هي تطبيق عملي للمواطنة، فكيف يكون حال المواطنة في ظل قانون الطوارئ الذي يتيح الاعتقال بمجرد الاشتباه؟

د.مصطفى:

يُفترض بقانون الطوارئ ألا يمس الحياة العامة للمواطن أو ممارساته السياسية ويقتصر دوره على مكافحة الإرهاب والجرائم.

- منال ماهر:

فيما يتعلق بأزمة المواطنة، أرى أزمة انتماء عند الشباب تتمثل في الهجرة شرعية كانت أم غير شرعية، كذلك أرى ضخ الأموال الأجنبية في مصر لدعم مفهوم المواطنة واللامركزية، وفي ظل وجود أزمة ثقة بين الحكومة والشعب، وأزمة في المشاركة السياسية، وأزمة في معرفة الشعب لحقوقه وواجباته، في ضوء كل هذا أريد بعض التوجيهات العملية الداعمة لروح الانتماء عند الشباب.

د.مصطفى:

ذكرت أن الصورة ليست مثالية، وأن الشعور بالانتماء لا يأتي إلا من استقرار المجتمع، عندنا يغيب دور المرأة ويهمش دور الأقباط. ويجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن مسألة التفريق بين المسلم والقبطي في مصر مسألة وافدة على مجتمعنا، قد تكون بسبب العمالة المصرية في الخليج، والتشدد الديني على الجانبين، وحقد من يؤرقه تجانس الشعب المصري وتماسكه.